أثر التّنغيم في توجيه دلالة الجملة

أ/ بودالية رشيدة، ج/ أكلي محند أولحاج – ولاية البويرة-

التّقديم: للتّنغيم دلالة وتتمثّل في اِنسجام الأصوات، حيث تكتمل فيه النّغمات وتتآزر مؤدّية المعاني والمقاصد، وهو أوسع من أن يحصر فيما يسمّى بهبوط النّغمة أو صعودها؛ لأنّه يشمل كلّ ما يحمل النّطق من عوامل ومن عناصر الأداء هذه العوامل عبارة عن ظواهر صوتيّة مكوّنة للتّنغيم، وتتمثّل في درجات النّغمات وأنواع الوقف، وطريقة الإيقاع، "وهي تكسبه تلوينا موسيقيّا معيّنا حسب مبناه ومعناه، وحسب مقاصده التّعبيرية وفقا لسيّاق الحال أو المقام"[1]، وذلك كلّه له أثر في نفوس السّامعين ومتابعتهم وحسن إصغائهم و فهمهم المراد.

سنحاول تبيان دلالة التّنغيم والعناصر الصّوتيّة المرتبطة به، وذلك في جملة من الآيات القرآنيّة، "فمن المعلوم أنّ للقرآن أغراضا منها الإعلام والتّنبيه، والوعد والنّهي، ووصف الجنّة والنّار، والرّد على الملحدين والكافرين، وليس طبيعيّا ولا سديدا أن تُقْرَأَ موضوعات هذه الأغراض كلّها بتنغيم واحد."[2] ذلك لأنّ قراءة القرآن تتّخذ أشكالا تنغيميّة متنوّعة اِحتراما للأغراض الّتي يهدف إليها.

يرى الإمام الزّركشيّ أنّ وجوه الخطاب في القرآن تأتي على نحو من أربعين وجها،"فمن أراد أن يقرأ القرآن بكمال التّرتيل، فليقرأه على منازله، فإنْ كان يقرأ تهديدا لفظ به لفظ المتهدّد، وإن كان يقرأ لفظ تعظيم لفظ به على التّعظيم." [3] وإنّ قوله:" **فلْيَقْرَأْهُ عَلَى مَنَازِلِهِ**" ما هو إلاّ تعبير عن الشّكل التّنغيميّ الّذي تُقْرَأُ به كلّ آية، ويتمثّل في مواءمة التّنغيم للمعنى؛ فالتّهديد غير التّعظيم، ويرى أنّ القارئ المجيد هو الّذي تكون تلاوته على معاني الكلام، وشهادة وصف المتكلّم، مثل الوعد بالتّشويق، والوعيد بالتّخويف، والإنذار بالتّشديد؛ فهذا القارئ أحسن النّاس صوتا بالقرآن، تأتي التّلاوة بوجوهها والقراءة على منازلها، وما حسن الصّوت عند قرّاء القرآن إلاّ عن طريق الأداء التّنغيميّ.

ونجد علماء القراءات اِعتنوا بقراءة القرآن الكريم، وحفظه، وتجويده "وإظهاره بالمظهر اللائق، لأنّهم أدركوا أنّ القراءة الوسيلة النّاجحة في فهم القرآن الكريم، وقد نصّ القرآن المجيد نفسه على قراءة القرآن بالصّوت الحسن لإظهار

عظمته، واِستذاقة فنّه." [4] قال تعالى:﴿**ورتّل القرآن ترتيلا**﴾[5]، أيّ أنّ تلاوة القرآن الكريم يصاحبها حسن الصّوت، وذلك يتحقّق بالتّنغيم، وهكذا يحقّق القارئ الهدف من مراعاة القراءة الحسنة، والمتمثّل في إظهار ما يحمله القرآن الكريم من عظمة وجمال، والممعن في طرق التّرتيل، وتعدّد القراءات، والاِختلافات الصّوتيّة والأدائيّة، يجد أنّ القرآن الكريم من حيث أداؤه، وكمال إعجازه، "هدفه اِستيعاب القرآن لتراكيب النّسق البليغ من حيث توفّر الأصوات الثّلاثة الضّروريّة لذلك هي: صوت النّفس، وصوت العقل، وصوت الحسّ، والصّوت الأخير أبلغهنّ شأنا"[(6)]، وهذا النّسج الصّوتيّ حامل لنظام موسيقيّ هامّ حيث تتناسق المعاني والنّغمات والفكرة والجرس أحسن تناسق، ويستفاد من اِستعمال التّنغيم في القرآن الكريم، مراعاة المعاني أثناء التّلاوة، لأنّ التّحبير، وهو لون من ألوان التّجويد والتّحسين والتّزيين؛ يجعل التّنغـيم وسيلة من وسائله حتّى يقف القارئ والمستمع على فهم دلالة آيات التّنزيل الحكيم.

النّغمات ودلالتها في القرآن الكريم: نغمة الصّوت هي إحدى صفاته، وكثيرا ما تكون عاملا مهمّا في أداء المعنى، وتتوقّف النّغمة على عدد ذبذبات الأوتار الصّوتيّة في الثّانية، وهذا العدد يعتمد على درجة توتّر الأوتار الصّوتيّة، وللنّغمة مستويات، وكلّ نوع منها يؤدّي دلالة ومعنى معيّنا. وتساعد كلّ نغمة على معرفة نوع الجملة إن كانت اِستفهاميّة أو تقريريّة أو للتّعجب أو للاِزدراء والسّخرية، وكلّ ذلك يتّضح من خلال كيفيّة قراءة الجملة؛ ذلك أنّ دلالة النّغمات تظهر في الجمل المنطوقة، نمثّل لذلك ببيت الشّاعر الفرزدق[7]:

كَمْ خَالَةٍ لَكَ يَا جَرِيرُ وَ عَمَّةٍ   فَدْعَاءَ قَدْ حَلَبَتْ عَلَيَّ عِشَارِي[8]

يمكن قراءة البيت بنغمة الاِستفهام، كما يمكن قراءته بنغمة الإخبار، ذلك أنّ "كم" تكون اِستفهاميّة، وتكون خبريّة. يقــول سيبويه في ذلك: " اِعلم أنّ ناسا من العرب يُعْمِلُونها فيما بعدها في الخبر، كما يُعْمِلُونها في الاِستفهام؛ فينصبون بها كأنّها اِسم منوّن" [9]، وهذا يعني أنّه إذا قرأنا "خالةٍ" بعد "كم" بالجرّ؛ فإنّ البيت يحمل نغمة الإخبار، والدّليل"أنّ العرب تقول: كم رجلٍ أفضل منك، تجعله خبرا."[10] أمّا

إذا قرأنا كلمة " خالةً " بالنّصب؛ فإنّ البيت يُقْرَأُ بنغمة الاِستفهام. والفرق بين دلالة الاستفهام والخبر، تتّضح في النّغمة المرتفعة في الاِستفهام والمستوية في الإخبار.

إنّ تغيير نغمة الصّوت في كلّ مرّة، يفهم من كلّ نوع منها معنى معيّنا، بحسب علو الصّوت واِنخفاضه، ولكلّ حالة نغمة معيّنة، وأداء يختلف عن غيره، و هذا ما نجده في قوله تعالى:﴿**أفمن هذا الحديث تعجبون59 وتضحكون ولا تبكون 60 وأنتم سامدون**﴾[11]. يتّضح ذلك من خلال تفسير الآيات، فقوله تعالى:"**أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ.**" قيل: من القرآن، ويحتمل أن يقال هذا إشارة إلى حديث﴿**أزفت الأزفة**﴾[(12)]، فإنّهم يتعجّبون من حشر الأجساد، وجمع العظام الفساد[(13)]. "**وَتَضْحَكُونَ وَلاَ تَبْكُونَ.**" أيّ تضحكون من هذا الحديث كما في قوله تعالى:﴿**فلمّا جاءهم بآياتنا إذا هم منها يضحكون**﴾[(14)] في حقّ موسى – عليه السّلام – وكان الكفّار أيضا يضحكون من حديث النّبيّ محمد - صلى اللّه عليه وسلّم – ومن القرآن الكريم، وقد يكون إنكارا على مطلق الضّحك مع سماع حديث القيامة، أيّ أتضحكون وقد سمعتم أنّ القيامة قريب، فكان حقّا لكم أن تبكوا منه، وتتركوا الضّحك وتأتوا بضدّه[(15)]. "**وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ.**" أيّ غافلون

يلاحظ أنّ الآيات جاءت جملا اِستفهاميّة ليس الغرض منها الإجابة بنعم أو لا، وإنّما هي تنبيه للكافرين عمّا بدر منهم من سلوكات، لذا تُقْرَأُ بنغمة منخفضة، بينما قوله تعالى:﴿**فاسجدوا للّه واعبدوا**﴾[(16)] فهي جملة أمريّة تحمل معنى الاِلتفات، أيّ كأنّه يأمر المؤمنين بالسّجود شكرا على الهداية، وأن يشتغلوا بالعبادة، وهو أمر صارم بألاّ يعبدوا غير اللّه تعالى، والسّجود يناسب العبادة، لهذا تُؤَدّى الآية بنغمة فوق عالية، وأمّا قوله تعالى: ﴿**زيّن للنّاس حبّ الشّهوات من النّساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذّهب والفضّة والخيل المسوّمة والأنعام والحرث ذلك متاع الدّنيا واللّه عنده حسن المآب** ﴾[(17)] فيه تعبير عن المشتهيّات الّتي أتى على ذكرها مجموعة على سبيل الإجمال، ثمّ أخذ في تفسيرها شهوة شهوة بدءا بالأهمّ فالأهمّ، بدأ بالنّساء لأنّهنّ حبائل الشّيطان، ثمّ البنين لأنّهم ثمرات النّساء وفروع عنهنّ، وقُدّموا على الأموال لأنّ حبّ الإنسان ولده أكثر من حبّه لماله، ثمّ الأموال من ذهب وفضّة وخيل مسوّمة والأنعام والحرث، ليختم الآيات بالإشارة

إلى الأشياء السّابقة أنّها أمور دنيّويّة حقيرة فانية، ولله المرجع إشارة إلى نعيم الآخرة الّذي لا يفنى[18]؛ فإنّ الأداء النّغميّ تكون نغمته مستوية لأنّ مقاطعها الصّوتيّة جاءت متّحدة الدّرجات في اِنخفاضها، فيكون أداؤها بنغمة عادية من غير اِنفعال، ويستمرّ الكلام على أداء واحد من بدايته إلى نهايته.

توجيه التّنغيم لدلالة الجملة في القرآن الكريم:

لقد كان للنّحو دوره في ضبط النّصّ القرآنيّ أداءً وفهماً، وكان النّحاة يحرصون على الكشف عن العلل الكامنة وراء النّظم القرآنيّ، وبخاصّة عندما يتّخذ القرآن من الموسيقى الصّوتيّة أداة من أدوات التّأثير وبلوغ المقصد. ويتوقّف فهم المعنى في حالات كثيرة على الطّريقة الصّوتيّة؛ أيّ على التّنغيم أو التّلوين الموسيقيّ الّذي يؤدّي دورا في التّفريق بين الجمل الخبريّة والإنشائيّة، فقد تكون الجملة خبريّة في المعنى وهي تحتوي على أداة اِستفهام في اللّفظ، وقد تكون اِستفهاميّة دون أن تحوي أداة اِستفهام، وللتّنغيم – في هذه الحالة - أهميّة عظيمة في دراسة الأساليب[19]، وذلك حسب اِختلاف قراءة القرّاء، من ذلك قوله تعالى: ﴿ **قال فرعون آمنتم به قبل أن آذن لكم إنّ هذا لمكر مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها**﴾[20] فكانت القراءة فيها على وجهين:

- "وجه الخبر فيه: أنّه يخبرهم بإيمانهم على وجه التّقريع لهم بإيمانهم، والإنكار له عليهم.

- ووجه الاستفهام: على وجه التّقرير يوبّخهم به، وينكره عليهم." [21]

تتّضح فائدة التّنغيم _ هنا _ في معرفة نوع الجملة من خلال قراءتها، بحيث تتمّ قراءة الجمل الخبريّة بنغمة منخفضة نسبيّا في بدايتها، ثمّ ترتفع النّغمة في منتصفها، وتنحدر بعدها إلى أقلّ اِنخفاض في نهايتها، وبهذا الأداء للآية تكون الجملة خبريّة؛ أمّا إذا قرئت الآية بمستوى منخفض، ثمّ توالى اِرتفاع النّغمة وصعودها حتى ينتهي باِرتفاع واضح في نهاية الكلمة، فإنّ الجملة تعتبر اِستفهاميّة.

وتبرز أهميّة التّنغيم في التّأويل النّحويّ بوجه خاصّ في أمثلة ما اِختلف فيه اللّغويّون حول حذف همزة الاِستفهام، وبقاء معنى الاِستفهام مفهوما، وذلك عن

طريق التّنغيم، مثل هذا موجود في الشّعر العربيّ، من ذلك قول **عمر بن أبي ربيعة**(22):

ثُمَّ قَالُوا: تُحِبُّهَا؟ قُلْتُ بَهْرًا   عَدَدَ الرَّمْلِ وَالْحَصَى وَالتُّرَابِ

هناك اِختلاف بين أئمة العربيّة في قول الشّاعر" تُحِبُّهَا " فقد جاء في كتاب مغني اللّبيب على تقدير الاِستفهام والتّقدير: أتحبّها؟(23) بينما أنكر المبرّد حذف همزة الاِستفهام بلا دليل على الحذف، فأنكر أنّ بيت عمر بن أبي ربيعة اِستفهاما؛ بل هو إخبار والمعنى: أنت تحبّها(24). ونستخلص من هذا الاِختلاف حول أداة الاِستفهام بإنكار البعض حذف الهمزة بلا دليل، و جعل بيت عمر بن أبي ربيعة على الإخبار، وجعل البعض الآخر البيت اِستفهاما تأكيد على وجود ظاهرة التّنغيم عند العرب القدامى، والاِعتماد عليها في تأويل البيت.

وثمّة أمثلة كثيرة لتراكيب تخلو من أداة الاِستفهام، ولكنّها في الحقيقة تستعمل كتراكيب اِستفهاميّة، ويدركها السّامع بوضوح وذلك بالتّنغيم، من هذا القبيل ما جاء في قوله تعالى: ﴿ **يأيّها النّبيّ لم تحرّم ما أحلّ اللّه لك تبتغي مرضاة أزواجك واللّه غفور رحيم**﴾(25) فهي اِستفهاميّة؛ ولكن خالية من أداة الاِستفهام، والتّقدير: "**أتبتغي مرضاة أزواجك؟**" تعويلا على أنّ معنى التّركيب يوحي إلى الاِستفهام، وقد حذف حرف الاِستفهام."(26)وعُوِّض في الآية بالتّنغيم المرتبط بالمعنى، فتقرأ الآية بنغمة الاِستفهام.

وتظـــهر أهميّة التّنغيم ودلالته النّحويّة من اِختلاف القرّاء واللّغويّين في همزة الاِستفهام، أيّ في جـــواز حـــذف همزة الاِستفهام في الكلام، فيصبح – أيّ الكلام - بلفظ الإخبار، ويدلّ على معنى الاِستفهام؛ كقوله – عزّ وجلّ -: ﴿**وإذ ابتلى إبراهيم ربّه بكلمات فأتمّهنّ قال إنّي جاعلك للنّاس إماما قال ومن ذرّيّتي قال لا ينال عهدي الظّالمين.**﴾(27) وذلك عندما أعلم اللّه تعالى إبراهيم – عليه السّلام – أنّ في ذريّته أنبياء، فأراد أن يعلم هل يكون ذلك في كلّهم أو في بعضهم؟ وهل يصلح جميعهم لهذا الأمر؟ والتّقدير: "**أو من ذريتي؟**"(28) فالآية الكريمة تُقْرَأُ بتنغيم الاِستفهام بدليل ما ورد من جواب منه سبحانه قال:﴿**لا ينال عهدي الظّالمين.**﴾(29)

ويكون التّنغيم من العناصر الّتي "تَسِمُ بعض الأقوال الإستفهاميّة المخصوصة والّتي لا تصدّر بأدوات إستفهام."[30] و تجلّى ذلك في تفسير قوله تعالى على لسان إبراهيم: ﴿**فلمّا جنّ عليه اللّيل رأى كوكبا قال هذا ربي فلمّا أفل قال لا أحبّ الآفلين**﴾[31] فقد أشار **الرّازيّ(ت: 604هـ)** إلى إمكان أن يكون "المراد الاستفهام على سبيل الإنكار؛ إلاّ أنّه أسقط حرف الإستفهام لدّلالة الكلام عليه"[32]، والتّقديـر:"**أهذا ربي؟**"، فهذا التّفسير هو "سعي من الرّازيّ إلى تبرئة إبراهيم من إمكان الكفر، غير أنّه تفسير ما كان ليكون ممكنا لولا الأسّ اللّغويّ الّذي ذكرناه."[33]، أيّ لولا التّنغيم لما تمكّن الرّازيّ من قراءة الآية على الاستفهام؛ فيرفع بذلك إمكان الكفر على سيّدنا إبراهيم-عليه السّلام-

إنّ حذف أداة الإستفهام ظاهرة من الظّواهر اللّغويّة في تراثنا العربيّ، بحيث نجدها في كتاب الله تعالى، وسنّة رسوله- صلى اللّه عليه وسلّم -[34] ومنثور العرب وشعرهم، وهذا الحذف لا يكون إلاّ بدليل، قال **ابن السّرّاج (ت: 316هـ)**: "واِعلم أنّ جميع ما يحذف فإنّهم لا يحذفون شيئا إلاّ وفيما أبقوا على دليل على ما ألقوا."[35] وهذه الظّاهرة تؤدّى بنغمة صوتيّة - خاصّة - في اللّغة المنطوقة، فيصبح بذلك التّنغيم وسيلة في نقل المعنى الّذي تعجز عن نقله اللّغة المكتوبة، لهـذا ذهبت طائفة من العلماء إلى جواز حذف الأداة إذا أمن اللّبس، ولكنّ هذا الحذف مرهون بالسّيّاق وقرائن الأحوال، فمتى دلّ في النّصّ دليل على أنّ السّيّاق سيّاق اِستفهام _ مثلا _ ولم يكن في الكلام أداة خاصّة به، اعْتُمِدَ على الأداء والتّنغيم للدّلالة على المحذوف. يقول **الزّجاج**: "وحذف الهمزة في الكلام حسن جائز إذا كان هناك ما يدلّ عليه."[36]

تكون قرينة التّنغيم _ في كثير من الأحيان _ أعظم أثرا من القرينة اللّفظيّة؛ أيّ الأداة، من ذلك قوله تعالى:﴿**يوسف أعرض عن هذا**﴾[37] فالمـحذوف حرف النّداء، وتقدير الكلام: "**يا يوسف**"، واِستبدل حرف النّداء "يا" بالتّنغيم قصد التّفخيم والتّعظيم والمبالغة[38]، ومن أغراض حذف حرف النّداء"يا" _أيضا_ التّخفيف لكثرة دورانه في الكلام[39]، أيّ أنّ المتكلمين يفعلون ذلك

اِستخفافا لكثرة وروده في كلامهم، والتّقدير: يا يوسف، وقد استبدل حرف النّداء بالتّنغيم.

وممّا يرى النّحاة حذفه جائزًا _ أيضا _ ويفهم من السّيّاق، هو حذف أدوات العرض أو التّحضيض، وهي أدوات تفيد الطّلب، والطّلب إمّا أن يكون بلين ولطف، أو شدّة وحزم لإفادة تأكيد مضمون الجملة[40]، واللّين والشّدّة لا يعرفان إلاّ بقراءة الجملة بتنغيم يدلّ على أحدهما، وتزداد الحاجة إلى ضرورة اِستعمال التّنغيم عند حذف هذه الأدوات، من ذلك ما نجده في قوله تعالى:﴿**إنّ اللّه يحبّ الّذين يقاتلون في سبيله صفّا كأنّهم بنيان مرصوص**﴾[41]، يرى المفسّرون أنّ هناك نوعا من التّحضيض في هذه الآية الكريمة لكنّه بغير أداة، ويفهم من السّيّاق، أو الأداء التّنغيميّ، أيّ أنّه نوع من الحضّ على القتال؛ لكن بنغمة فيها لطف ولين أظهر فيه- عزّ وجلّ - حبّه للّذين يقاتلون في سبيله.

وقد ترد "لولا" الشّرطيّة للاِستفهام على سبيل التّحضيض، وأدرك النّحاة ذلك من خلال القرينة الحاليّة، ثمّ القرينة التّنغيميّة الدّالة عليها الّتي غيّرت معنى لولا من الدّلالة الشّرطيّة إلى الدّلالة التّحضيضيّة، ففي قوله تعالى:﴿ **لولا أخرتني إلى أجل قريب**﴾[42] ليس ثمّة تحضيض في المعنى، يريد: هلا أخرت موتي إلى زمن قريب[43]، كما أنّها لا تحمل معنى الشّرط لأنّه ليس ظاهرا كما في قوله تعالى:﴿**من يضلل اللّه فلا هادي له**﴾[44] وإنّما تدلّ على التّمني بدليل تمام الآية:﴿**وأنفقوا من ما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول ربّ لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدّق وأكن من الصّالحين**﴾[45]. تدعو الآية الكريمة المؤمنين إلى الإنفاق قبل أن يروا دلائل الموت، ويضيق بهم الخناق، فيتعذّر عليهم الإنفاق، ويفوت وقت القبول، فيتحسّر على المنع، وعن اِبن عباس أنّه ما من أحد لم يزك، ولم يصم، ولم يحجّ إلاّ سأل الرّجعة، كأنّه قيل: إن أخرتني أصدّق، ففيها دعاء حتّى يؤخّر اللّه أجله، ووعد منه بالصّلاح[46]، فالآية الكريمة ليس فيها ثمّة تحضيض في المعنى، ولا تحمل معنى الشّرط، وإنّما هي دعاء للّه وتضرّع من العبد لتأخير موته، وتمن لفعل الخير والصّلاح.

وقد نجد أمثلة تشتمل على أدوات الاِستفهام، وهي في الوقت نفسه ليست اِستفهاما، ويفسّرها بعضهم بأنّها جمل خبريّة تقريريّة، ومنها "هل" وردت بمعنى " قد"، من أمثلة ذلك ما نجده في قوله تعالى:﴿**هل أتى على الإنسان حين الدّهر لم يكن شيئا مذكورا**﴾[47] بحيث جعلها الزّمخشريّ بمعنى "قد" تفيد التّقرير والتّقريب جميعا، أيّ: قد أتى على الإنسان قبل زمان قريب لم يكن فيه أيّ شيء، وكان منسيّا غير مذكور، نطفة في الأصلاب، كأنّه قيل: قد أتى عليه حين من الدّهر غير مذكور[48]، فنستنتج من ذلك أنّ الآية الكريمة تبدو اِستفهاما بناء على القرينة اللّفظيّة، وهي أداة الاِستفهام "هل" في حين لو نظرنا إلى سيّاق المعنى القرآنيّ؛ لم تكن الجملة اِستفهاميّة، والآية الكريمة بصيغتها أسلوب تقريريّ، ولهذا تُقرَأُ بتنغيم الجملة الخبريّة المؤكّدة، لا بتنغيم الجملة الإنشائيّة الاِستفهاميّة، وقد جانبت الآية بذلك دلالة الاِستفهام إلى دلالة التّأكيد من خلال معناها في السّيّاق وقرينة التّنغيم الصّوتيّ.

كما أنّه لا وسيلة عند تضام الاِستفهام مع التّعجب، واِستمالته إلى الخبر سوى هذه الوسيلة الصّوتيّة – أيّ التّنغيم- الّذي ينقل الجملة من معنى الاِستفهام إلى معنى النّفيّ، فقوله تعالى:﴿**هل يستوي الّذين يعلمون والّذين لا يعلمون**﴾[49] اِستفهام لا يحتاج إلـــى إجابـــة؛ وإنّما الغرض منه النّفيّ، ونستخدم – ذلك- كثيرا في لغتنا المعاصرة، فنقول مثلا: كيف تعادي أباك؟ بلفظ الاِستفهام، ونحن نريد التّعجب والإنكار، وهو ما يؤدّيه التّنغيم، ويتوقّف عليه فهم المعنى في حالات كثيرة، ومن هنا تبرز أهميّة دراسة اللّغة المنطوقة مثلما هو الاهتمام باللّغة المكتوبة؛ لأنّ لكلّ منهما نظاما خاصّا؛ قد يختلف اِختلافا كبيرا عن صاحبه، و يوجد في تراثنا النّحويّ بعض الإشارات الّتي تدلّ على إدراك العلماء لظاهرة التّنغيم، غير أنّها لم توثّق كقواعد نحويّة، وهذا الاِختلاف بين النّحاة في طريقة نطق الجملة، أدّى في كثير من الأحيان إلى اِختلاف تفسيرهم أو حكمهم اللّغويّ على الجملة الواحدة، وبالتّالي إعطاؤها عدّة معان، ولو أنّهم ربطوا بين الأداء الصّوتيّ _ أيّ التّنغيم _ والجملة لما كان هذا الخلاف في توجيه معنى بعض

التّراكيب، وكذا إعرابها، من هذا القبيل خلافهم في إعراب (ما)في قوله تعالى: ﴿**أولم يتفكّروا ما بصاحبهم من جنّة إنْ هو إلاّ نذير مبين**﴾[50].

قيل: إنّ "ما" في هذه الآية الكريمة نافية والمعنى: أولم يعلموا اِنتفاء الجنون عن صاحبهم[51]. وقيل: إنّها اِستثنائيّة اِستفهاميّة، والمعنى: أولم يتفكّروا أيّ شيء بصاحبهم من الجنون مع اِنتظام أقواله وأفعاله، وقيل: إنّ"ما"موصولة والكلام إثبات[52]، وعلى ذلك يكون الكلام خارجا على رغم المشركين إذا كان التّنغيم "خاصّا بمعنى الاِستفهام"[54]، فإنّه يختلف عن التّنغيم الخاصّ بمعنى التّقرير والإثبات، ويكون بذلك (أيّ التّنغيم) عنصرا دلاليّا يهدي إلى تفسير الجملة تفسيرا صحيحا.

لقد أجرى النّحاة قوله تعالى:﴿**أبصر به وأسمع ما لهم من دونه من وليّ**﴾[55] على التّعجب، وأنّ قوله: "**أَسْمِعْ وَأَبْصِرْ**" نظير قولنا: "ما أحسن زيدا"، في حين أنّه لا صلة مشابهة، أو قرابة دلاليّة بينهما، أو أنّ كلاهما يؤدّيان فائدة واحدة هي التّعجّب[56]، لقد قيل في تعريف التّعجب: أنّه الدّهش من الشّيء الخارج عن نظائره المجهول سببه، وقد قيل: إذا ظهر السّبب بطل العجب، واللّفظ الموضوع له بحقّ الأصل ما أفعله و أفعل به، فإذا نظرنا إلى تمام الآية الكريمة:﴿**قل اللّه أعلم بما لبثوا له غيب السّماوات والأرض أبصر وأسمع ما لهم من دونه من وليّ ولا يشرك في حكمه أحدا**﴾[57] لا نجدها تحتوي على اِندهاش بدليل ما تحمله من معنى .

إنّ في الآية ذكر لأهل الكهف ومدّة لبثهم فيه، وتشمل على تعظيم اللّه تعالى وتمجيده[58]، وفي قوله: "**أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ**" ضمير يعود عليه سبحانه وهو في هذا ألصق بأسلوب المدح منه بالتّعجّب، لذلك لا تؤدّى الآية الكريمة بأسلوب التّعجب، ولعلّ عدم اِتّكال النّحاة على تنغيم الجملة؛ هو الّذي نحا بهم إلى اِعتبار "**أَبْصِرْ بِهِ وأَسْمِعْ**" تعجّبا في حين أنّها ليست كذلك. وقد ساعد التّنغيم في الآية الكريمة على إلغاء التّعجّب عنها، وإعطائها المعنى الصّحيح الّذي تحمله.

وقد أرجع المحدثون الاِختلاف بين أئمة اللّغة والقراءات _ في كثير من الأحيان _ إلى الأداء الصّـوتيّ وطريقة التّنغيم، فأصبح بذلك القرآن الكريم

"مصدرا ثريّا يضبـــط فـــيـــه الباحث مختلف وجوه الأداء؛ الّتي تحدّد بمختلفها مواقع النّبر، وضابطها التّنغيم بتنوّع نغماته، وهذا المصدر أوفى من غيره لـــدّراسة اللّهجات العربيّة؛ بتشكلاتها الصّوتيّة المختلفة، وما يتأتى عنها من تنوّع في تشكيل الإيقاع،"(59) وإنّ اِختـــلاف الأداء الصّوتـــيّ يؤدّي إلى تحديد مختلف مواقع النّبر، وضبط أنواع التّنغيم، ومعرفة أشكال الإيقاع وكلّها عناصر صوتيّة تتجلّى بوضوح أثناء قراءة القرآن الكريم.

وهكذا نرى أنّ التّنغيم في نطق الجملة ينقلها من باب نحويّ إلى باب نحويّ آخر، ويظهر ذلك بإرتفاع الصّوت، أو إنخفاضه في أثناء النّطق للتّعبير عن معان مختلفة في نفس الإنسان، والجملة قد تعتمد على التّنغيم المصاحب لنطقها لبيان معناها دون أن يكون في تركيبها ما يدلّ على هذا المعنى، وهذا يُظْهِرُ لنا حقيقة مفادها أنّ للتّنغيم دورا مهمّا في تحديد معنى الجملة العربيّة.

الخاتمة: أمّا ما يمكن استخلاصه في نهاية هذا الموضوع هو أنّ:

– التّنغيم ركن أساسيّ في الأداء ولا تخلو منه أيّة لغة من لغات البشر، وتتجلّى أهميّته في اللّغة العربيّة وقيمته في إبراز المعاني المختلفة، فاللّغة العربيّة لغة تنغيميّة يكون فيها التّنغيم على مستوى الجملة لذا من الضّروريّ إتقانه، كما أنّ معرفته أمر بالغ الأهميّة لصلته بالمعنى.

_ التّنغيم ليس محصورا في درجة الصّوت بل ترتبط به مجموعة من الظّواهر الصّوتيّة؛ منها:النّبر، المقطع، الإيقاع، الوقف...وهي تمثّل مكوّنات التّنغيم وعوامل من عوامله، ولها أهميّة في تحديد دوره في الكلام.

_ للتّنغيم فائدة في معرفة نوع الجملة إن كانت اِستفهامية أو تقريريّة أو للتّعجّب أو للاِزدراء والسّخرية، وذلك عن طريق تغيّر نغمة الصّوت وتغيير علامات الوجه، أي أنّه يعتبر الصّورة العامّة الّتي تشتمل عليها اللّغة؛ بحيث أنّ جملة الاِستفهام لها نغمتها الّتي تختلف عن جملة الإخبار أو الإثبات أو الشّرط أو التّقريع، وبدراسة النّغمات المختلفة يتمّ التّفريق بين هذه الأنواع من الجمل في اللّغة العربيّة.

- يترجم التّنغيم حال المتكلّم من غضب أو دهشة أو رضا، ويساعد على الانتقال من المعنى الحقيقيِ إلى معان بلاغيّة، لذلك نال حظوة كبيرة عند الدّارسين ومكّنهم من التّمييز بين الأساليب كخروج الاستفهام عن معناه الحقيقيّ إلى غرض بلاغيّ يقصده المتكلّم أو يعبّر عنه بمقتضى الحال.

– إنّ تلاوة القرآن الكريم تختلف من آية قرآنيّة إلى أخرى، ويكون ذلك عن طريق التّنغيم الّذي يتغيّر بتغيّر المعنى الّذي تحمله كلّ آية، فتنغيم الباكي مقبول مثلا في آيات الاستغفار والتّوبة، ولا بدّ له أن يختلف عن تنغيم الآيات الّتي تحضّ على القتال، أي يجب أن يوائم التّنغيم المعنى ويظهره، ليجعل المقروء مستقرّا في ذهن السّامع وقلبه، فاللّين غير الشّدة، والأمر غير الدّعاء والالتماس، والخبر غير الاستفهام، والوعد غير الوعيد، وبذلك يخدم التّنغيم كتاب اللّه تعالى،وتظلّ اللّغة العربيّة سليمة صحيحة، لأنّ في صحّتها وسلامتها صحة الأداء القرآنيّ وسلامته والوقوف على معانيه.

– التّنغيم بحث من البحوث اللّغويّة الحديثة يعنى به اللّغويّون في الكلام؛ حتّى ينوّع المتكلّم درجات صوته وذلك لتناسب أغراض الكلام، لذا يجب أن تكون قراءتنا للقرآن الكريم بمعرفة متى نرْفَع الصّوت، ومتى نخْفضه أثناء التّلاوة، والقصد من هذه المعرفة الوقوف على دلالات الآيات الكريمات .

الهوامش:

[1]- الأسلوب والأداء في القراءات القرآنيّة، خير الديّن سيب، دمشق، دار الكلم الطّيّب، ط1، 1429هـ - 2007م ، ص:179.

2- علم الأصوات، د: كمال بشر، القاهرة، دار غريب للطّباعة والنّشر والتّوزيع، ب ط ،2000م، ص: 531.

[3]- البرهان في علوم القرآن، الإمام بدر الدّين محمد بن عبد الله الزّركشيّ، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دمشق، دار إحياء الكتاب العربيّ، منشورات عيسى البابيّ الحلبيّ، ط3، 1400هـ- 1980م، ج2، ص: 181.

[4]- ينظر: قضايا قرآنيّة في ضوء الدّراسات اللّغويّة، د:عبد العال سالم مكرم، بيروت، مؤسّسة الرّسالة، ط1، 1401هـ- 1988م، ص: 05 وما بعدها.

[5]- سورة المزمل، الآية: 04.

[6]- ينظر إعجاز القرآن والبلاغة النّبويّة، مصطفى صادق الرّافعيّ، الجزائر، مكتبة رحاب، ب ط، ب ت، ص:221.

[7]- ديوان الفرزدق،شرحه وضبطه وقدّم له: علي فاعور،بيروت، دار الكتب العلميّة، ب ط، ب ت، ص: 312.

8- الفدعاء: الّتي اِعوجّت مفاصلها. حلبت عليّ عشاري: أيّ أنّها كانت راعية لماشيته. ينظر: نفسه، ص: 312.

9- الكتاب، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر سيبويه، تحقيق: عبد السّلام هارون،القاهرة، مكتبة الخانجيّ، ط2، 1982م، ج2، ص: 161.

10- نفسه، ص: 161.

11 - سورة النّجم، الآية: 59-61.

[1]2 - سورة النّجم، الآية: 57.

13- ينظر: التّفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، الإمام فخر الدّين محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن الرّازي، قدّم له: هاني الحاج، حققه: عماد زكي البارودي، القاهرة، المكتبة التوفيقية، ب ط، ب ت، المجلّد 15، ص:431 .

14- سورة الزّخرف، الآية:47.

15- ينظر: تفسير التّحرير والتّنوير، الإمام محمد الطّاهر بن عاشور، تونس، الدار التونسية للنشر، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، ب ط، 1984، ج 27 ، ص:160 .

16 - سورة النّجم، الآية: 62.

17 - سورة آل عمران، الآية:14.

18- علم لأصوات، كمال بشر، مرجع سابق، ص:530.

19- ينظر: التّوجيه البلاغيّ للقراءات القرآنيّة، د: أحمد سعد محمد، القاهرة، مكتبة الآداب للنّــشر، ط1، 1418هــ- 1998م، ص: 210 وما بعدها.

20 - سورة الأعراف، الآية: 123.

21 - الحجّة في القراءات السّبع، الإمام اِبن خالويه، تحقيق د: عبد العالم سالم مكرم، بيروت، مؤسّسة الرّسالة، ط6، 1417هــ-1996م، ص:161.

22 - شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة، تحقيق: محمد محيّ الدّين عبد الحميد، بيروت، دار الأندلس، ط3، 1384هــ _ 1965م، ص: 431.

23 - ينظر: مغني اللّبيب عن كتب الأعاريب، جمال الدّين عبد الله بن هشام الأنصاريّ، تحقيق، د: مازن محمد مبارك وزميله، حمص، منشورات جامعة البعث، ب ط، ب ت ،ج2، ص: 20.

24 - ينظر: الكامل في اللّغة والأدب، أبو العباس محمد بن يزيد المبرّد ، تحقيق، د: زكي مبارك، مصر، مطبعة الحلبيّ وشركاه، ب ط، 1356هــ - 1987م، ج2، ص: 610.

25 - سورة التّحريم، الآية: 01.

26 - شواهد التّوضيح والتّصحيح لمشكلات الجامع الصّحيح، اِبن مالك، تحقيق، د: طه محسن، مصر، مطبعة بولاق، ط2، 1413هــ، ص:147.

27- سورة البقرة، الآية: 124.

28 - ينظر: معاني القرآن، سعيد بن مسعدة الأخفش، تحقيق، د: فايز فارس، الكويت، دار الكتب الثّقافيّة، ط1، 1979م، ج1، ص: 141.

29 - سورة البقرة، الآية: 124.

30 - تعدّد المعنى في القرآن، د: ألفة يوسف، تونس، دار السّحر للنّــشر، ط1، 2003م، ص: 164.

31 - سورة الأنعام، الآية: 76.

32 - مفاتيح الغيب، الرّازيّ، المجلّد السّابع، ص: 40.

33 - تعدّد المعنى في القرآن، د: ألفة يوسف، مرجع سابق، ص:165.

34 - كقول الرّسول – صلى الله عليه وسلم- "أتاني آت من ربي؛ فأخبرني أنّه من مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة. قلت: وإن سرق، وإن زنى؟ قال: وإن سرق وإن زنى." التّقدير: أو إن سرق وإن زنى؟. ينظر: صحيح البخاريّ، الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاريّ الجعفيّ، ضبطه، د: مصطفى ديب البغا حلبونيّ، دمشق، دار العلوم الإسلاميّة، ط2، 1413هـ - 1993م، ج2، باب الجنائز، ص: 89-90.

35 - الأصول في النّحو، أبو بكر محمد بن سهل بن السّراج النّحويّ البغداديّ، تحقيق: الحسين الفتليّ، بيروت، مؤسّسة الرّسالة، ط1، 1405هـ- 1985م، ج2، ص: 264.

36 - إعراب القرآن المنسوب للزّجاج، تحقيق ودراسة: إبراهيم الأبياريّ، القاهرة، دار الكتاب المصريّ، بيروت، دار الكتاب اللبنانيّ، ط4، 1420هـ- 1990م، ج1، ص: 301.

37 - سورة يوسف، الآية: 29.

38 - ينظر: مقدّمة في اللّسانيّات، د: عاطف فضل، عمّان، دار الرّازيّ للطّباعة والنّشر والتّوزيع، ط1، 1426هـ- 2005م ، ص: 188.

39 - ينظر: البرهان في علوم القرآن، الزّركشيّ، ج1، ص: 546.

40 - ينظر: النّحو الوافي، د: عباس حسن، مصر، دار المعارف، ب ط، ب ت، ج4، ص: 512 وما بعدها.

41 - سورة الصّفّ، الآية: 04.

42 - سورة المنافقون، الآية: 10.

43 - ينظر: الكشّاف، الإمام محمود بن عمر الزّمخشريّ، القاهرة، دار الرّيّان للتّراث، بيروت، دار الكتاب العربيّ، ضبطه وصحّحه: مصطفى حسين أحمد، ط3، 1407هـ ، 1987م، ج4، ص:546.

44 - سورة الأعراف، الآية :186.

45 - سورة المنافقون، الآية: 10.

46 - ينظر: الكشّاف، الزّمخشريّ، ج4، ص: 546.

47 - سورة الإنسان، الآية: 01.

48 - ينظر: الكشّاف، ج4، ص: 666.

49 – سورة الزّمر، الآية: 09.

50 - سورة الأعراف، الآية:184.

51 - ينظر: الكتاب، سيبويه، ج1، ص:59 .

52 - ينظر: هداية السّالك إلى ألفيّة بن مالك، د: صبيح التّميميّ، قسنطينة، دار البعث، ط2، 1410هـ- 1990م، ص: 260 وما بعدها.

53 - في أصول النّحو، سعيد الأفغانيّ، حمص، منشورات جامعة البعث، ب ط، 1991م، ص: 93-94.

54 - سورة الكهف، الآية: 26.

55- ينظر: من أساليب القرآن، د: إبراهيم السّامرائيّ، الأردن، دار الفرقان، بيروت، مؤسّسة الرّسالة للطّباعة والنّشر، ط2، 1407هـ- 1987م، ص: 71.

56 - سورة الكهف، الآية: 26.

57 – ينظر:تفسير الجلالين مذيّل بكتاب أسباب النّزول للسّيّوطيّ، الإمامان: العلاّمة جلال الدّين محمد بن أحمد المحلى، وجلال الدّين عبد الرّحمن بن أبي بكر السّيوطيّ، تعليق: الشّيخ خالد الحمصيّ الجوجا، دمشق، مكتبة الملاّح للطّبع والنّشر، ب ط، 1389هـ - 1969م، ص: 340 – 341.

58 - اللّهجات العربيّة في التّراث، علم الدّين الجنديّ، بيروت، الدّار العربيّة للكتاب، ب ط، 1983م، ج1، ص: 106.